

«منظومة التفكير العقلاني في الفكر الإمامي (دراسة فكرية)»

د. محسن كاظم مشالي | ٣٦٩

منظومة التفكير العقلاني في الفكر الإمامي (دراسة فكرية)

د. محسن كاظم مشالي

المقدمة

ولم يخل عصر من العصور الإسلامية إلا وكانت هناك تحديات تواجه الفكر الإسلامي حتى جاء القرن العشرين حيث شهد أكبر هجمة شرسة من أفكار وتيارات ودول اتحدت فيما بينها لتدمير صرح الإسلام العظيم فكان لا بد من وقفة شاملة جادة من أفراد وجماعات ومدارس استطاعت ان تقف بوجه تلك التيارات الهدامة وتردها على أعقابها ولا تزال الحرب فيما بينها.

من هنا يعد الحديث عن منظومة التفكير العقلاني في الفكر الإمامي من الأحاديث التي تلقي بظلال وارفة وكثيرة المعاني والمضامين، والتي يمكن توظيفها في خدمة المشروع الإسلامي الناهض والواعد لمواجهة التحديات المختلفة التي تواجه هذا الدين العظيم في مختلف جوانبه، كيف لا، والمنظومة الدينية قد استهدفت اليوم في شتى مجالات الحياة الدينية للفرد والمجتمع المسلم، ومن أجل ما تقدم جاء هذا البحث ليسلط الضوء عن منظومة التفكير العقلاني الإمامي، وبيان قدرته في تحقيق التوازن في المعركة القائمة اليوم بين الفكر المتحجر الذي يحاول الغرب تصوير المسلمين فيه وما آلت إليه أحوالهم المزرية، وبين الفكر الرسالي الذي يمثل فكر آل البيت قلبه النابض والذي تحرص الدوائر الاستعمارية والامبريالية على وأده والقضاء عليه.

من هنا جاء هذا البحث ليبرز للقارئ مدى اعتناء الفكر الإمامي بالتأصيل للعقلانية في

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وبعد؛

لقد واجه الفكر الإسلامي على مدى التاريخ مجموعة من التحديات الداخلية والخارجية عبرت عن نفسها بمجموعة من الأفكار والآراء التي تتعد وتقترب من النهج الإسلامي الصحيح تبعاً لعوامل كثيرة.

ولقد كانت شدة الهجمة على الدين الإسلامي والمتمثلة بالآراء المتشددة الممزوجة بفلسفات الأمم التي دخلت الإسلام رغبة أو رهبة والتي أفادت من أجواء الحرية الفكرية التي رسختها الدولة والمتمثلة بحرية الكلام وحرية النشر والكتابة ولكن بعد حركة الترجمة والنقل الواسعة في بدايات العصر العباسي كان لا بد من أن تحدث المواجهة بين تلك الأفكار المنحرفة والأفكار الإسلامية الأصيلة وكان لا بد من ظهور مفكرين إسلاميين استطاعوا ان يرسخوا الأسس الصحيحة لمفاهيم الإسلام وينفوا عنه كل تلك الأفكار التي لا تستند إلى ما جاء في صريح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وفي الوقت نفسه يبقى مجال الحرية الفكرية مفتوحاً للجميع على أن لا يتعارض مع قيم وتقاليد ومبادئ الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي وأن بقاء أبواب الاجتهاد مفتوحة خير دليل على ذلك.

«منظومة التفكير العقلاني في الفكر الإمامي (دراسة فكرية)»

..... د. محسن كاظم مشالي | ٣٧١

بناء منظومته الفكرية ليحقق للقارئ ما يصبو إليه في تحقيق الأمن الفكري في مواجهة التحديات المختلفة. وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه .

المبحث الأول

مفهوم منظومة التفكير العقلاني

• المطلب الأول/ مفهوم التفكير

التفكير مصدر من مصادر الفعل الثلاثي فكر يفكر فكرا وتفكيراً، والفكر : هو إعمال الخاطر في الشيء^(١)، ونستطيع القول أن الفكر هو ما دار في النفس وتردد في القلب بعد تدبر وتفكير. ونقصد بالفكر الاسلامي هو الفكر المستمد من روح الاسلام كتاباً وسنةً وتفسيره تفسيراً لا يخرج عن ضوابط المفسرين والنحويين وأهل الحديث^(٢).

• المطلب الثاني/ مفهوم العقل

أ- العقل لغة: قال ابن فارس^(٣) في معجمه



(١) لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور. دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢ م المجلد السابع باب الفاء ص ١٤٦.

(٢) الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مكتبة المتوسط ، بيروت الطبعة الأولى، ص ٤٠٨.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس، بن زكريا اللغوي القزويني الرازي، أبو الحسين: (٣٢٩ - ٣٩٥ هـ) من أئمة اللغة والأدب. أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبتها. من تصانيفه معجم مقاييس اللغة، وجامع التأويل في تفسير القرآن أربع مجلدات، وله شعر حسن، ينظر: المنتظم ابن الجوزي ١٠٣/٧؛ معجم الأدباء ياقوت الحموي ٤١١/١؛ طبقات المفسرين، السيوطي، ص

في مادة (عقل): «العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدلُّ عَظْمُهُ على حُبْسَةِ في الشيء أو ما يقارب الحُبْسَةِ. من ذلك العَقْل، وهو الحابسُ عن ذميم القول والفعل»^(١) ويقال: عَقَلَ البعيرُ بالعقال، عَقَلَ الدواءُ البطنَ إذا امسكها، وعَقَلَت المرأةُ شعرها، وعَقَلَ لسانه كَفَهُ، وعَقَلَ الطَّبِيُّ إذا امتنع في الجبل، واعتَقَلْتُ الرجلُ إذا حبسْتُهُ^(٢).

فالعقل يرجع إلى معان: المنع والإمساك والضبط والحفظ، وضده الإرسال والإطلاق والإهمال والتسيب، ونحو ذلك^(٣).

ب- العقل اصطلاحاً. اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تعريف العقل إلى أقوال عديدة، وأراء مختلفة، جاء في تفسير الميزان؛ للعلامة الطباطبائي: الأصل في العقل: العقد والإمساك، وبه سمي إدراك الإنسان إدراكاً يعقد عليه عقلاً، وما أدركه عقلاً، والقوة التي يزعم أنها إحدى القوى التي يتصرف بها الإنسان، يميّز بها بين الخير والشر، والحق والباطل عقلاً، ويقابله الجنون و

المطلب الثالث: مقام العقل في الإسلام:
لقد أولى الإسلام العقل مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، لا نظير لها في الكتب السماوية، ومع كثرة ما ورد في القرآن من ألفاظ العقل والتي بلغت ما يقارب الخمسين لفظاً، ما بين اسم وفعل، في حين أن الكتاب المقدس لم يرد فيه ولا كلمة عن العقل، ولا في معناها^(٤)، وأنه لا توجد عقيدة تحترم العقل وتعتمد عليه في فهم النصوص، واستنباط الأحكام كالعقيدة الإسلامية^(٥)، وتمثل ذلك فيما يأتي:

١. العقل من أكبر نعم الله تعالى على عباده، وأنه كرم بني آدم به على سائر المخلوقات، وجعله مناط التكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(٦)، وجعل من كماله كمال عقله، وميَّزه عن سائر المخلوقات بالإرادة وقدرة التصرف، وسخَّر له الكون والحياة بما وهبه من العقل، التي تسنده الفطرة السليمة التي أودعها الله

١٥؛ الأعلام، الزركلي ١/١٩٣.

(١) معجم مقاييس اللغة ٤/٦٩-٧٠.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٤/٦٩-٧٠؛ القاموس المحيط، الفيروز آبادي ٤/١٨ مصر، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ؛ المفردات في غريب القرآن، ص ٣٤٢. تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات الطبع.

(٣) ينظر: مباحث في العقل، د. محمد نعيم ياسين

٢٢. دار النفائس، عمان، ط ١، ١٤٣٢ هـ/٢٠١١ م.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي: (٢٤٧/٢)

(٥) ينظر: تفسير المنار ١١/٢٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ١؛ ظاهرة التأويل، د. خالد بن عبد العزيز السيف، ص ٣٠٥، جده، مركز تأصيل للدراسات، ط ١، ١٤٣١ هـ/٢٠١٠.

(٦) ينظر: مقال العقل، مجلة البحوث الإسلامية عدد

٣٦٠/٧٩.

(٧) سورة الإسراء: ٧٠.

قدرة الله المعجزة في الأفاق والأنفس وتفردته بالخلق والتدبير، وصولاً بالإنسان إلى وجوب إفراده سبحانه بالعبادة دون سواه^(٧).

٣. كما أنه ورد في القرآن الكريم ذم للذين عطلوا عقولهم عن التفكير، وحواسهم عن التبصر في مخلوقات الله تعالى، وركنوا إلى التقليد الأعمى، واتبعوا أباةهم بدون برهان، أو علم، أو حجة وسلطان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾^(٨).

٤. وجعل الإسلام العقل مناط التكليف؛ لان التكليف خطاب، ومن لا عقل له ولا فهم محال مخاطبته بالتكليف، فالمجنون والصبي الذي لا يميز يتعذر تكليفه، لذلك ورد في الحديث: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ)^(٩).

(٧) ينظر: الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، د. عبد الكريم نوفان عبيدات، ص ٥٠٦، دار النفائس، عمان، ط ١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

(٨) سورة البقرة: ١٧٠.

(٩) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج ١٥٦/٦، برقم: ٣٤٣٢ واللفظ له؛ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م؛ وابن ماجه في سننه كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، ٦٥٨/١، برقم: ٢٠٤١، تحقيق محمد

فيه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾^(١).

٢. وردت الكثير من الآيات في القرآن الكريم في مدح من اتصف بالتعقل والتفكير والتدبر والنظر والاعتبار وغير ذلك، منها قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٤﴾﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا

﴿لَوْ كَانُوا مِن عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٤﴾﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦﴾﴾^(٦)، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدعو العقل إلى تدبر آيات الله في الكون للتعرف على

(١) سورة لقمان: ٢٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٢.

(٣) سورة الحشر: ٢١.

(٤) سورة النساء: ٨٢.

(٥) سورة الحشر: ٢.

(٦) سورة ص: ٢٩.

المبحث الثاني

وظائف العقل وحدود في منظومة التفكير الإمامي

• المطلب الأول/ روايات أهل البيت في

الاعتماد على العقل واعلاء مكانته

من المهم قبل ذكر الروايات الواردة عن أهل بيت النبوة في اعلاء مكانة العقل السامقة أن نشير إلى جملة حقائق نرى من الضروري ذكرها كتوطئة لما نحن بصدد التأسيس له هنا، وهذه الامور تتمثل في الاتي: أولاً: إن العقل لم يكن منبعاً مستقلاً في التشريع على غرار الكتاب والسنة كما يحلو لخصوم الشيعة والمدرسة الامامية تصويرهم في القول به. وثانياً: إن حكم العقل لا يستمد اعتباره إلا في حالة غياب الإمام المعصوم و«فقدان النص»، ولذا فهو يفقد اعتباره في ظل حضور الإمام، وعلى المكلف حينئذ مراجعة الإمام نفسه، وثالثاً: إن المراد من العقل هو الأحكام الضرورية من قبيل وجوب شكر المنعم وقبح الظلم أو مجموعة من الأصول العملية من قبيل «أصالة الإباحة عند فقدان النص»^(١). وفيما يأتي بعض الروايات الواردة عن الأئمة

المعصومين في اعلاء راية العقل وتعزيز دوره:

١- روى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا بَلَغَكُمْ عَنْ رَجُلٍ حُسْنُ حَالٍ فَانظُرُوا فِي حُسْنِ عَقْلِهِ، فَإِنَّمَا يُجَازَى بِعَقْلِهِ»^(٢).

٢- وَرَوَى عَنِ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا قَسَمَ اللَّهُ لِلْعِبَادِ شَيْئاً أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ، فَنَوْمُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ سَهْرِ الْجَاهِلِ، وَإِقَامَةُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ شُحُوصِ الْجَاهِلِ، وَلَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا حَتَّى يَسْتَكْمَلَ الْعَقْلَ، وَوَمَا يَكُونُ عَقْلُهُ أَفْضَلَ مِنْ جَمِيعِ عُقُولِ أُمَّتِهِ، وَمَا يُضْمَرُ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنْ اجْتِهَادِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَمَا أَدَّى الْعَبْدُ فَرَائِضَ اللَّهِ حَتَّى عَقَلَ عَنْهُ، وَلَا بَلَغَ جَمِيعَ الْعَابِدِينَ فِي فَضْلِ عِبَادَتِهِمْ مَا بَلَغَ الْعَاقِلُ، وَالْعُقَلَاءُ هُمْ أَوْلُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أَوْلُو الْأَلْبَابِ»^(٣).

٣- عن الإمام علي عليه السلام: أَفْضَلُ النَّاسِ عَقْلاً أَحْسَنُهُمْ تَقْدِيرًا لِمَعَاشِهِمْ وَأَشَدَّهُمْ اهْتِمَامًا بِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ»^(٤).

٤- عن الإمام علي عليه السلام: لَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرِّينَ»^(٥).

(٢) الكافي، للكليبي: ١ / ١٢.

(٣) الكافي، للكليبي: ١٢ / ١.

(٤) نهج الفصاحة، إبراهيم باينده، ح ٧٨١.

(٥) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطبة ٩١

فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت.

(١) العقل في الفقه الشيعي.. الماهية والوظائف (القسم الثاني)، أ. محمد تقي الكرمي، مجلة المنهاج،

السنة السابعة شتاء ١٤٢٣-٢٠٠٣ م: ص ٢١١

• **المطلب الثاني: وظائف العقل وأعماله:**
يحتلُّ العقل في الإسلام بعامته، وفي المدرسة الكلامية الشيعية بخاصة، مكانة عليا، إذ يعد مصدراً من مصادر التشريع، إلى جانب الكتاب والسنة والإجماع، ويراد منه هنا منظومة الأحكام القطعية النظرية والعملية. وفي المدارس ذات الاتجاهات الفكرية الباطنية، فلا تتمتع الأحكام العقلية بأي احترام غالباً، ذلك أنه، وعلى العموم، يكون المرشد أو الشيخ في أعلى الهرم يميّز الحق من الباطل وفق نظام التأويل، والاستناد إلى مجموعة من المعارف الباطنية، وهنا يفقد العقل قدراته، ويصبح عاجزاً عن القيادة^(٥). ويمكن ايجاز وظائف العقل بما يأتي:

١. جعل الإسلام للعقل مكانة عظيمة، فمن أولى وظائفه أن يفكر بعالم الشهادة المحسوس، ويتبصر بعظيم الخلق البديع، والتدبير العجيب، والإحكام المتناهي في الدقة، ليتوصل إلى معرفة العزيز الخبير.
٢. ومن وظائفه التي أيطت به هو: التفكير في الأمور المستجدة، والمشاكل التي يتعرض لها جنس الإنسان على اختلاف الأزمان، فتحتاج إلى حلول شرعية واجتهادات فقهية، تبقى المسلم ضمن الحدود الشرعية.

٥- عن الإمام الباقر عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا^(١).

٦- عن الإمام الصادق عليه السلام: دَعَامَةُ الْإِنْسَانِ الْعَقْلُ وَالْعَقْلُ مِنْهُ الْفِطْنَةُ وَالْفَهْمُ وَالْحِفْظُ وَالْعِلْمُ وَالْعَقْلُ يَكْمُلُ وَهُوَ دَلِيلُهُ وَمُبْصِرُهُ وَمِفْتَاحُ أَمْرِهِ فَإِذَا كَانَ تَأْيِيدُ عَقْلِهِ مِنَ النُّورِ كَانَ عَالِمًا حَافِظًا ذَاكِرًا فَطِنًا فَهَمًا فَعَلِمَ بِذَلِكَ كَيْفَ وَلِمَ وَحَيْثُ وَعَرَفَ مَنْ نَصَحَهُ وَمَنْ عَشَّهُ فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ عَرَفَ مَجْرَاهُ وَمَوْصُولَهُ وَمَفْصُولَهُ وَأَخْلَصَهُ مِنْ تَأْيِيدِ الْعَقْلِ^(٢).

٧- عن الإمام الكاظم u: كَمَا لَا يَقُومُ الْجَسَدُ إِلَّا بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ فَكَذَلِكَ لَا يَقُومُ الدِّينُ إِلَّا بِالنِّيَّةِ الصَّادِقَةِ وَلَا تَثَبَّتْ النِّيَّةُ الصَّادِقَةُ إِلَّا بِالْعَقْلِ^(٣).

٨- عن الإمام الرضا عليه السلام: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا سَلَبَ الْعِبَادَ عُقُولَهُمْ فَأَنْفَذَ أَمْرَهُ وَتَمَّتْ إِرَادَتُهُ فَإِذَا أَنْفَذَ أَمْرَهُ رَدَّ إِلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ عَقْلَهُ فَيَقُولُ كَيْفَ ذَا؟ وَمِنْ أَيْنَ ذَا؟^(٤).

إلى غير ذلك من المرويات الواردة عن الائمة المعصومين في اعلام راية العقل والتمجيد به وبما يدلل قطعاً بأن الاسلام دين العقل وأن آل البيت u أسهموا بشكل كبير وفاعل في التأسيس للعقلانية ونصرتها.

(١) غرر الحكم: ٦/ ٤٤١، ح ١٠٩٢٦.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٢٥، ح ٢٣.

(٣) تحف العقول: ص ٣٩٦.

(٤) تحف العقول: ص ٤٤٢.

(٥) حميد الدين الكرمانى، راحة العقل، ص ١٣٧

وص ١٩٤، وينظر كذلك: حاشية الكليني على شرح

جلال الدين الدواني، ج ٢، ص ٢٣١.

٣. عمارة الأرض وإصلاحها، واكتشاف خيراتها وكنوزها، ومعرفة القوانين الطبيعية التي وضعها الله فيها، لتسخيرها بما يخدم الإنسان ومصلحه، وتطوره الاجتماعي والعمرائي.

٤. التفكير في أسرار الشريعة، والحكم البديعة التي وضعها الله تعالى في شرعه الحنيف، لمعرفة القواعد الشرعية، والحكم الربانية.

٥. ومن وظائف العقل التمييز بين الضار والنافع، وبين الخير والشر؛ فمن المعلوم أن العقل من النعم العظيمة التي تضبط سلوك الإنسان، وتجعله مستقيم السلوك والتصرف، عارفا للخير وعاملا به، وكاشفا غوائل الشر ومبتعدا عنه، ولو فقد الإنسان عقله فإنه يصبح عديم التمييز بين ما يضره وما ينفعه^(١).

• المطلب الثالث: حدود العقل:

إن وظائف العقل السالفة الذكر لهي كبيرة القدر عظيمة الشأن تجعله منشغلا بها وضمن إمكانياته المحسوسة، وتغنيه عما لا طاقة له به من الخوض فيه، من عالم الغيب المستور، والذي هو خارج حدود العقل وتصوراته ومدركاته؛ كالذات الإلهية، والجنة والنار، وأحوال يوم القيامة، والروح، وحياة البرزخ، والملائكة، والجن، وغيرها من الأمور المغيبة عنا، فالله جل في علاه «جعل للعقول في إدراكها حدا تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل

لها سبيلا إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، إذ لو كان كيف يكون؟ فمعلومات الله لا تتناهي، ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهي^(٢).

وكذلك عمل العقل مع النصوص الشرعية، فهو قائم على الفهم للنصوص وشرحها واكتشاف أسرارها وحكمها، من خلال سلطة النصوص الشرعية أولا، وبما قام في العقل من قدرات ومعارف ثانيا، وهو دور أساسي، وليس على أساس العقل تفهم النصوص، ولا أن فهمه هو المعتمد من دون سلطة النصوص، كما هي طروحات العقلانيين^(٣).

قال السيد الخوئي -قدس سره- : الجهة الثانية: في بيان أن العقل، هل يدرك الحسن والقبح بعد الفراغ عن إثبات أنفسهما أم لا؟ والتحقيق أن يقال: أن العقل وإن لم يكن له إدراك جميع المصالح والمفاسد، إلا أن إنكار إدراكه لهما في الجملة وبنحو الموجبة الجزئية، مناف للضرورة أيضا، ولولا ذلك لما ثبت أصل الديانة، ولزم إفحام الأنبياء إذ إثبات النبوة العامة فرع إدراك العقل لقاعدة وجوب اللطف، كما أن إثبات النبوة الخاصة بظهور المعجزة على يد مدعيها، فرع إدراك العقل

(١) ينظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، د. ناصر

بن عبد الكريم العقل، ص ٢٨ - ٣٢، دار الفضيلة،

الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٢) الاعتصام، الشاطبي ٤٦٤/٢.

(٣) ينظر: وقفات مع أدياء العقلانية خالد كبير علال،

ص ١٤٩ - ١٥٠ صيغة ورد على الشبكة العنكبوتية.

منه...»^(٣).

• **المطلب الرابع: العقلانية في التفكير الإمامي**
يعد مصطلح (العقلانية) مصطلحاً حديثاً نابعا من عقلانية الطرح الديني الاسلامي، وبخاصة عقلانية الطرح الشيعي الذي كانت أهم عوامل جذبهم الأنصار إلى منهج آل البيت، فهي عقلانية تقوم على تحكيم القرآن والعقل ومن هنا استطاعت تجديد محتوياتها ومواكبة الواقع والمتغيرات. إضافة إلى تجربتها مع الحركات الإسلامية المناهضة لكل ما هو عقلي لأن استخدام العقل عند كثيرين يعني الزندقة والضلال، ونحن إذ نقرر احترام المنظومة الشيعية للعقل إلا أننا لا بد أن نشير هنا إلى وجود صنفين مختلفين بين أصحاب الأئمة، خاصة الإمامين: الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام وهم جماعة المتكلمين، وأخرى تسمى المحدثين والفقهاء؛ فمن الصنف الأول: هشام بن الحكم، وهشام بن سالم، وحميران بن أعين، ومحمد بن الطيار، ومؤمن الطاق. ومن الصنف الثاني: محمد بن مسلم، وأحمد بن محمد بن خالد البرقي، ومحمد بن الحسن الصفار، وما يميز الصنفين عن بعضهما بشكل أساسي، هو كيفية استخدام العقل في المعارف الدينية ومديات هذا الاستخدام وكميته، لهذا بإمكاننا اعتبارهم ممثلي العقلانية والنصيّة في

قبح إظهار المعجزة على يد الكاذب، ومع إنكار إدراك العقل للحسن والقبح بنحو السالبة الكلية: كيف يمكن إثبات أصل الشريعة فضلا عن فروعها؟^(١).

يقول ابن خلدون^(٢) في معرض كلامه عن حدود العقل وإمكانياته، وأنه لا مطمع في إطلاق العقول في الغيبات، لأن خلق الله أكبر من خلق الناس، فينبغي التقييد بمحدودية العقل والتزام الشرع في الاعتقاد والعمل، وهو أعرف بمصلحة الخلق «وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فان ذلك طمع في محال. ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق؛ لكن العقل قد يقف عند طوره، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل

(١) أجود التقريرات: ٣٧/٢.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الأشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) ينظر:

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، التلمساني ١٧١/٦، الأعلام ٣٣٠/٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون، طبعة الشرفية، مصر، ١٣٢٧هـ، ص ٥١٣.

كي لا تدخل في طريق مسدود كما يمثل - بالنسبة لنهضتنا المنشودة - اذ بمقدورنا القول بأنّ المشروع العقلاني الإسلامي الذي مثلته تجربة الإمامية له قدرات لا تفوقها قدرة في العالم ولكنها مخفية بسبب العقبات التي تحيط بها من كل جانب؛ لذا فعلى المسلمين اليوم أن يحسبوا حساب تلك العقبات للتغلب عليها، وهذا العمل يتطلب من الجميع أن يذوبوا ضمن مشروع حضاري واحد؛ فإذا ما سرنا خلف هذا المسمى فإننا سنلمح بوادر التقدم أماننا، وعندها سنتغلب على جميع العقبات، بعيداً عن التفرق الذي أبعد المسلمين عن السير في مشروعهم الحضاري، وبعيداً عن المشروع الغربي المادي الذي جرّ إلى الإنسانية الويلات، والذي تنعم به جماعة على حساب أمة.

نقول ذلك لان على المسلمين اليوم بذل أكبر الطاقات والجهود لأنّ المشروع الغربي اليوم يسير نحو الهاوية لأنه يعتمد على كل ما أنتجه العقل-المحاط بالشهوات والمصالح الجامحة- دون الخضوع للدين السماوي، بينما نجد إلتقاء العقل بالوحي قد شكّل اللبنة الأولى في بناء الفكر الإسلامي لدى الإمامية؛ إذ لم يترك الإمامية العقل ليسيّر من غير توجيه، وذلك لأن الطرق متعددة والمسالك متشعبة؛ بل رسم له منهجاً يترتب من خلاله على أصول التفكير السليم^(٣).

(٣) تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي،

الدائرة الشيعية^(١).
ومن الملفت أن لا نرى في الدائرة الشيعية إلى القرن الثالث الهجري خلافاً بين المتكلمين والمحدثين، عكس ما نراه لدى أهل السنة، وإن كان يدور بينهم حوار ونقاشات، لكن القطيعة التي حصلت بين الحنابلة والمعتزلة، لا نراها بين النزعتين: النصية والعقلية عند الشيعة، ويعود هذا الأمر إلى استناد الشيعة إلى المعصوم ورجوعهم إليهم؛ فحضور الأئمة وتوجيهاتهم منع الإفراط وظهور الاختلاف، حيث اعتمد منهج الأئمة على قبول العقل وتناول مسائله، لكنهم حددوا دائرة الإدراك العقلاني، وحدّروا المؤمنين من اتّسع دائرته أبعد من إمكاناته^(٢).

إن قضية امتزاج (النظر) بـ (العمل) و(الفكر) بـ(الحركة) هي التي تجسد تفعيل مشروع العقلانية الحضاري، وعليه يتطلب الأمر منا أن نصب كل مفردات المشروع الفكري في بلورة (الحل الإسلامي) لمشكلات الأمة المعاصرة وصياغة (المشروع الحضاري الإسلامي) الذي يمثل - بالنسبة للصحة الإسلامية المعاصرة - دليل العمل الذي ينيّر لها الطريق وطوق النجاة

(١) العقل والنص في الكلام الإسلامي، قراءة في الإشكالية، الشيخ محمد تقي سبحاني، ترجمة: فرقد الجزائري، مجلة نصوص معاصرة، بحث منشور على شبكة الانترنت تحت الرابط: <http://nosos.net>

العقل والنص - في - الكلام الإسلامي، -قراءة.

(٢) العقل والنص، المرجع نفسه.

فالإمامية من منطلق الاسلام لم يرفضوا دور العقل، إلا أنهم لم يتركوه هكذا من غير توجيه؛ وذلك لأن العقل لا يستطيع إدراك كل شيء على ما هو عليه، فكانت بداية تفعيل العقل هي اعتناق الإسلام؛ وهو خلاف ما حصل لأوروبا؛ فقد كانت يقظة العقل هي بداية الابتعاد عن المسيحية، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على قصور المنهج في الديانة المسيحية- المحرّقة-، وعدم صحّته مما جعلهم يحاربون العقل وإبتكاراته لأجل أن لا يخلق لهم منافساً والعكس صحيح، إذ أنّ الدين الاسلامي فتح آفاق العقل وتركه يبدع في شتى المجالات؛ فظهرت الحضارة الإسلامية التي لا نظير لها في العالم^(١).



لذا نقرر هنا بأن العقلانية التي امتازت بها منظومة التفكير الإمامي هي ليست العقلانية التي تتمحور حول ثنائيات العقل والنقل، والعلم والدين، ونحوها وإنما نعني بها الحكمة بمفهومها القرآني وتطبيقها الإمامي، فإن العقلانية التي يؤمن بها الإمامية هي عقلانية متحركة غير ثابتة، وهي منفتحة على معطيات الحداثة المتغيرة في الواقع والتاريخ

لإبراهيم الحيدري، دار الساقى للطباعة والنشر،
١٩٩٩م: ص ٢٢٥

(١) مقال انترنيت بعنوان العقلانية المعتدلة والعقلانية المتطرفة، للدكتور محمد عثمان الخشت. مجلة المعرفة، العدد ١٣٦ في ١/٥/٢٠٠٩م. <http://www.almarefh.org/news.php>

(٢) من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، محمد أركون، ص ٩٥. ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

ويراد منه هنا منظومة الأحكام القطعية النظرية والعملية.

٧- إنّ المشروع العقلاني الإسلامي الذي مثلته تجربة الإمامية له قدرات لا تفوقها قدرة في العالم ولكنها مخفية بسبب العقبات التي تحيط بها من كل جانب.

٨- إن العقلانية التي امتازت بها منظومة التفكير الإمامي هي ليست العقلانية التي تتمحور حول ثنائيات العقل والنقل، والعلم والدين، ونحوها وإنما نعني بها الحكمة بمفهومها القراني وتطبيقها الإمامي، فإن العقلانية التي يؤمن بها الإمامية هي عقلانية متحركة غير ثابتة، وهي منفتحة على معطيات الحداثة المتغيرة في الواقع والتاريخ والمجتمع.



الخاتمة

بعد الانتهاء من البحث وتحليل مادته لا بد من وقفة تأمل واستذكار لأهم نتائج البحث وأبرز مقاصده وعلي النحو الآتي:

١- العقل من أكبر نعم الله تعالى على عباده، وأنه كرم بني آدم به على سائر المخلوقات، وجعله مناط التكريم.

٢- وردت الكثير من الآيات في القرآن الكريم في مدح من اتصف بالتعقل والتفكير والتدبر والنظر والاعتبار وغير ذلك.

٣- ورد في القرآن الكريم ذم للذين عطلوا عقولهم عن التفكير، وحواسهم عن التبصر في مخلوقات الله تعالى، وركنوا إلى التقليد الأعمى، واتبعوا آباءهم بدون برهان، أو علم، أو حجة وسلطان.

٤- جعل الإسلام العقل مناط التكليف؛ لأن التكليف خطاب، ومن لا عقل له ولا فهم محال مخاطبته بالتكليف، فالمجنون والصبي الذي لا يميز يتعذر تكليفه

٥- إن حكم العقل لا يستمد اعتباره إلا في حالة غياب الإمام المعصوم و«فقدان النص»، ولذا فهو يفقد اعتباره في ظل حضور الإمام، وعلى المكلف حينئذ مراجعة الإمام نفسه

٦- يحتلُّ العقل في المدرسة الكلامية الشيعية بخاصة، مكانة عليا، إذ يعد مصدراً من مصادر التشريع، إلى جانب الكتاب والسنة والإجماع،

المصادر والمراجع

الإسلامي،-قراءة.

١٠. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مصر،

نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة
الأميرية ١٣٠٢هـ.

١١. لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور.

دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢ م المجلد السابع.

١٢. مباحث في العقل، د. محمد نعيم ياسين ٢٢.
دار النفائس، عمان، ط ١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٣. المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد
سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون
معلومات الطبع.

١٤. مقال انترنت بعنوان العقلانية المعتدلة
والعقلانية المتطرفة، للدكتور محمد عثمان الخشت.

مجلة المعرفة، العدد ١٣٦ في ١ / ٥ / ٢٠٠٩ م
<http://www.almarefh.org/news.php>

١٥. مقدمة ابن خلدون، طبعة الشرفية، مصر،
١٣٢٧هـ.

١٦. من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي،
محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار
الساقي، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

١٧. الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية
للدراستات والنشر، مكتبة المتوسط

١٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م،
١، ظاهرة التأويل، د. خالد بن عبد العزيز
السيف، جده، مركز تأصيل للدراسات، ط ١،
١٤٣١هـ / ٢٠١٠.

١٩. وقفات مع أدعياء العقلانية خالد كبير
علال، صيغة ورد على الشبكة العنكبوتية.

١. الاتجاهات العقلانية الحديثة، د. ناصر بن
عبد الكريم العقل، دار الفضيلة، الرياض،
ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٢. تراجيدا كربلاء: سوسولوجيا الخطاب
الشيوعي، لإبراهيم الحيدري، دار الساقي
للطباعة والنشر، ١٩٩٩م

٣. حاشية الكليني على شرح جلال الدين
الدواني

٤. الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير
مسائل العقيدة الإسلامية، د. عبد الكريم نوفان
عبيدات، دار النفائس، عمان، ط ١، ١٤٢٠هـ/
٢٠٠٠م.

٥. سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد
الباقي، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت.

٦. سنن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة،
حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط ٢،
١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٧. طبقات المفسرين، السيوطي.

٨. العقل في الفقه الشيعي.. الماهية والوظائف
(القسم الثاني)، أ. محمد تقي الكرمي، مجلة
المنهاج، السنة السابعة شتاء ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م.

٩. العقل والنص في الكلام الإسلامي، قراءة في
الإشكالية، الشيخ محمد تقي سبحاني، ترجمة:
فرقد الجزائري، مجلة نصوص معاصرة، بحث

منشور على شبكة الانترنت تحت الرابط:
[http://nosos.net](http://nosos.net/http://nosos.net) العقل-والنص-في-الكلام-

